ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

[1*]Rese. Karim Kamel Zghair

[2]Dr. Wasan Sadiq Abbas

College of Education for Human Sciences / the University of Wasit

Email:
std2024208.karem.k@uowasit.edu.iq
walbadrawy@uowasit.edu.iq

Keywords:

The concept of duality , good , evil , pride poets.

CC BY

Article info

Article history:

Received 24. Jun.2025

Accepted 30. Jul.2025

Published 25. May.2026

The duality of good and evil in the poetry of Bakr ibn Wa'il in the pre-Islamic era, pride as a model

A B S T R A C T

The duality of good and evil is the most influential of the antithetical dualities in human life today, or in the afterlife, to the point that it has become a source of disagreement between religions or within the same religion in their source. Perhaps it is the most prominent of the antithetical dualities in Arabic poetry, especially pre-Islamic poetry, as the pre-Islamic poet fought its existential struggle with nature and with man, which made pre-Islamic poetry a moral lexicon reflecting those value-based conflicts. The Banu Bakr tribe had the lion's share of those conflicts, as it was the owner of the Basus War, the longest pre-Islamic war, and one of the most deeply rooted wars in Arab memory. In this environment brimming with tumultuous conflicts, the duality of good and evil is the most prominent duality in Bakri poetry, because these dualities are most closely linked to value-based and war-based conflicts. This study seeks to study this duality analytically in selected examples of Bakri poetry. In this study, we have explained the concept of (the duality of good and evil), and we have also mentioned many poetic examples of this duality.

© 2026 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol63.Iss2.4573

ثنائية الخير والشر في أشعار بكر بن وائل في الجاهلية الفخر أنموذجا

الباحث: كريم كامل زغير أ.م.د. وسن صادق عبّاس
جامعة واسط ـ كليّة التّربية للعلوم الإنسانيّة

الملخّص:

تُعدّ ثنائية الخير و الشر اكثر الثنائيات الضدية مساسا بحياة الإنسان الأنية، أو بمستقبله في العالم الآخر ، حتى كانت محط الاختلاف بين الأديان أو بين الدين الواحد في مصدرهما، ولعلها أكثر الثنائيات الضدية حضورا في الشعر العربي وبخاصة الجاهلي منه؛ اذ خاض الشاعر الجاهلي صراعها الوجودي مع الطبيعة ومع الإنسان ، مما صير من الشعر الجاهلي معجما اخلاقيا عاكسا تلك الصراعات القيمية، وقد حظيت قبيلة بني بكر بالسهم الأوفر من تلك الصراعات، فهي صاحبة حرب البسوس أطول حرب جاهلية، ومن أكثر الحروب رسوخا في الذاكرة العربية، وفي ظل هذه البيئة الطافحة بالصراعات الصاخبة، تُعدّ ثنائية الخير والشر أكثر الثنائيات حضورا في الشعر البكري؛ لأن هذه الثنائيات أكثرها ارتباطا بالصراعات القيمية والحربية، وتسعى هذه الدراسة إلى دراسة هذه الثنائية دراسة تحليلية في نماذج مختارة من الشعر البكري، وقد بينا في هذه الدراسة مفهوم (الثنائية الخير والشر)، وكذلك ذكرنا العديد من النماذج الشعرية حول هذه الثنائية.

الكلمات المفتاحيّة: مفهوم الثنائية ، الخير ، الشر ، شعراء الفخر.

تجليات الخير والشر في الفخر أشعار بكر بن وائل أنموذجًا :

– مفهوم (الثنائية، الخير، الشر):

قبل الولوج في الموضوع لا بدّ لنا من الوقوف على معنى (ثنائية الخير والشر) لغة واصطلاحًا، ففي مقاييس اللغة عرف ابن فارس الثنائية بأنها: "ثني: الثاء و النون و الياء أصل واحد ، وهو تكرار الشيء مرتين أو جعله شيئين متواليين أو متباينين" (ابن فارس، ٢٠٠١م، ١٧٢)، وجاء في المعجم الفلسفي "الثنائي من الأشياء ما كان ذا شقين، والثنائية هي القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون كثنائية الأضداد، وتعاقبها" (صلبيا، ١٩٨١م، ٢٧٩/١)، وبهذا تكون الثنائيات أداة وسبيلا لفهم طبيعة الأشياء وتحولاتها؛ إذ لا يمكن تصور الأقطاب منفردة.

أما الخير فقد جاء عند ابن فارس (٣٩٠ هجري) "الخاء و الياء و الراء ، أصله العطف و الميل ثم يُحمل عليه، فالخيرة خلاف الشر؛ لأن كل أحد يميل إليه ويعطف على صاحبه والخيرة الخيار والخير الكرم " (ابن فارس، ٢٠٠١م، ٣١٨)، أما في الاصطلاح فقد كان التضاد هو الأساس الذي تبناه افلاطون (٣٤٧ ق.م) لتعريف الخير "ومادام الشر ضدّ الخير ، فإن العلم بالخير هو بالذات علم بالشر" (جبيروآخرون،١٩٩٧ م، ٩٧) و "أن الخير هو ما به يتعلق كلّ شيء ، وإليه تهدف الأشياء كلها على أنها تجد فيه أصلها وعلى أنها في حاجة إليه، أما هو فليس به حاجة إلى شيء؛ اذ يكتفي بذاته، ولا يعوزه شيء "(جبير وآخرون،١٩٩٧ م، ٩٧)، ولا يبتعد مفهوم الخير عند ابن سينا عنه عند افلاطون ، ويتّضح تأثره به، والمعنى واحد وأخرجه ابن سينا بثياب جديدة يظهر ذلك في تعريفه "الخير بالجملة هو ما يتشوقه كل شيء ويتم به وجوده ....، وقد يقال خير أيضا لما كان نافعا ومفيدا لكمالات الأشياء".(ابن سينا، د.ت، ٢٦٥).

أما مفهوم الشر في المعاجم يكاد يقترب عندهم حين جعلوه مقابلًا للخير ونقيضه، وعرفه ابن فارس (٣٩٠هجرية) بقوله: "الشين والراء أصل واحد يدلّ على الانتشار والتطاير من ذلك الشر خلاف الخير ..." (ابن فارس، ٢٠٠١م، ٥٠).

والشر اصطلاحا فيعرفه ابن سينا بقوله: "واعلم أن الشر على وجوه، فيقال شرّ لمثل النقص الذي هو الجهل والضعف، وتشويه في الخلقة، ويقال: شرّ لما هو مثل الالم " (ابن فارس، ٢٠٠١م، ١٨٧)، والكمال هو البرزخ بين الخير والشر كما يرى "والشر ضدّ الخير؛ ولأن الخير يطلق على الوجود أو على حصول كل شيء على كماله على حين أن الشر يطلق على العدم أو على النقصان وكل شيء عن كماله "(ابن سينا، د.ت،٣٢٠).

وتكاد تقترب المفاهيم السابقة للخير والشر في اللغة والاصطلاح على أن الخير هو الأصل، وأن الشر هو النقص والضدّ له، وعند افلاطون وابن سينا هو الكمال وأن الشر نقص وتشويه للخير.

اعتاد المجتمع العربي على تمجيد القيم العليا في بيئته القبلية المتسمة بالتنافس المستمر الشامل لشؤون الحياة الصغيرة والكبيرة، وما هو تافه مادي، وما هو اجتماعي وسياسي نازلا في ثنايا حياتهم اليومية، ومرتفعا إلى عظيم مواقفهم وقيمهم العليا ، فمن الطبيعي أن يكون الفخر محملا بثنائيات الخير والشر؛ لأنه صورة لذلك التنافس المجتمعي الواقعي الذي يسعى أفراده لنيل المجد ودرء النقص، ومن أجل بناء تصور علمي لهذا الغرض الشعري، لابدّ من الوقوف على مفهومه اللغوي والاصطلاحي ؛ اذ ورد في لسان العرب أن "الفَخْر والفَخَر ، مثل نَهرٍ ونَهَرٍ ، والفُخْر والفخار والفخارة و الفخيرى و الفخيراء : التمدُّح بالخصال والافتخار وعدُّ القديم ؛ وقد فَخَرَ يَفْخَر فخراً وفخرةً حسنة ؛ عن اللحياني ، فهو فاخر وفخور ، وكذلك افتخر، وتفاخر القوم: فخر بعضهم على بعض" (ابن منظور، د.ت ، ٥/ ٤٨).

وبالانتقال من دلالة الفخر اللغوية إلى الاصطلاحية فقد عُرف بأنه "التغني بالفضائل والمثل العليا، والتباهي بالسجايا النفسية والصفات القومية، والزهد لفعال الطيبة ... وخصاله وفعاله، من الشجاعة والكرم والمروءة وحماية الجار وطيب المنبت وعراقة الأصل، وكثرة المال والولد إلى غير ذلك مما يزهو به الإنسان ويختال به على غيره" (الجبوري، ١٩٨٣م، ٣٠٠)، فإن دفع أضداد هذه الشمال عنه، أو عن قبيلته أتم للمعنى وأرضى لأفرادها وأوقع في النفس، وإلحاقها بغيرهم إعلاء لشأنهم وتفردهم بها، فالشاعر حين يفتخر ينسب لنفسه، أو لقبيلته ما يفتخر به في المجتمع الذي ينتمي إليه، وما يرتضيه مجتمعه من خصال تعارف عليها، ويعمد الشاعر إلى نفي ما ينكره مجتمعه عنه أو عن قومه أو الحاقها بغيرهم مما يفردهم تكون وسيلته الثنائيات الضدية؛ ليصل لغايته، وهي تفردهم وتميزهم عن غيرهم، مما يجعل البون واسعا بين المفتخر وغيره ، فتكون للثنائيات الضدية وقعا في نفس المتلقي؛ لأنها تضخم المساحة بين ما يخلعه على نفسه، أو على قومه وبين ما يبعده عنه أو عن قومه، وتشد المتلقي تلك المسافة المصنوعة بين الضدين، وفي الخير والشر يمكن ملاحظة تلك المسافة ، فالخير دائما نقطة عليا (الكرم ، الشجاعة ، الوفاء ، القوة ، الإيمان ، الأمان ، العدل ...)، أما الشر فهو النقطة السفلى المنحدرة عن الخير (البخل ، الجبن، الغدر، الضعف ، الكفر ، الخوف ، الظلم...)، فالبخيل إذا أراد أن يكون كريما يجب أن يقطع تلك المسافة الفاصلة بينه وبين الكريم؛ ليكون مثله والكريم ينحدر، ليكون بخيلا ، وبالتالي فإن التسلق أو الانحدار يشدّ الانتباه بخلاف من تنعدم بينها التضاد فتنعدم بينها المسافة، وبهذا يرى أحد الدارسين أنّ المتلقي أكثر شدا في النصّ المتضاد بسبب العلاقة المتوترة بين الضدين (الواسطي، ٢٠٠٣م، ٢٣٦) ، وبما أن الشاعر يفتخر؛ ليوصل للمتلقي ما عليه هو أو قومه ، فالوسيلة الناجعة هي الثنائيات التي تجلب عنان ذهنه، والأساليب البلاغية المتشحة بها الثنائيات الضدية الفضل في تخفيف أو تضخيم تلك المسافة كما سيأتي.

وإذا بحثنا عن الفخر الذاتي، والفخر القبلي في أشعار بني بكر نجد الفخر بالقبيلة كان أكثر في ديوان البكريين من الفخر بالنفس، وهو قد يكون حكما مسبقا لكن ستأتي الأدلة على هذا، ولابدّ من سبب، ويرى البحث أن السبب وقع القبيلة مع تغلب وتخلى بعض بطونها عنها، وتنكل تغلب بها قد زاد أواصر اللحمة بين أفرادها أو بين بطونها المتبقية المكافحة لتغلب، فإن الفخر بالقبيلة، وتعدد مأثرها هو مدح للبطون الأخرى؛ لتشعر بقرابتها منها وتشجيعا لها للمضي معها في رحلة قتالها، وحثًّا للمتخلفين منهم؛ ليشاركوا معهم في الحرب التي كادت أن تأتي على آخرهم؛ لأن المجتمع الجاهلي " يعتمد

على رابطة النسب والقرابة القوية ... ولم يكن هناك تركيب آخر يتميز بالقوة والسلطة والحماية التي يعلن للفرد أن يستند اليها وقت الواقعة، وأن كل شخص ومجموعة قرابته في الصحراء يقفون ضدّ باقي العالم " (حسن، ٢٠٠٩م ،١٣٦– ١٣٧)

جاءت الثنائيات الضدية في فخرهم الحربي متموضعة حول الخير والشر؛ لأن هذا النوع من الفخر في الغالب يقوم على إعلاء شأن القبيلة، وإثبات شجاعتها وانتصاراتها وأيامها وسطوتها وقوتها، وما فيها من نجدة وتكاتف في نصرت أفرادها وشجاعة أبطالها، وتوطين نفوس أفرادها على الموت، وصبرهم على عرك الحرب لهم وذكر أيام انتصارها على القبائل، وفي المقابل نفي أضداد هذه الصفات عنه، أو نعت أعداء القبيلة بأضداد هذه الصفات .

شكلت الحرب في الجاهلي ميدانا؛ لأثبات الذات القبلية البدوية التواقة للحرب، مما جعل شعر الفخر والحماسة رفيقا للسيف في تلك الحروب (بروكلمان، د.ت، ١/ ٤٩ ، المرزباني، ١٩٨٢ م، ٣٢٤)، ولا تخلو حرب من نصر وهزيمة أو شجاع وجبان أو تقدم وفرار أو غدر ووفاء، وبالتالي يسهم الواقع الحربي في اتكأ الشاعر على الثنائيات الضدية، فهذا قيس بن ثعلبة يجسد بأبيات من الطويل شجاعة قومه وثباتهم (نبوي، ١٩٨٩ م، ٥٥٣) :

دَعَوْتُ بَنِي قَيْسٍ إِلَيَّ فَشَمَّرَتْ خَنَاذِيدُ مِنْ سَعْدٍ طِوالُ السَّواعِدِ

إذا ما قُلُوبُ الْقَوْمِ طَارَتْ مَخَافَةً مِنَ الْمَوْتِ أَرْسَوْا بالنفوس المواجد

إِذَا جَمَحَتْ حَربٌ بِهِمْ جَمَحُوا لها ولم يُقْصِرُوا دُونَ الْمَدَى الْمُتَبَاعِدِ

يستثمر الشاعر طاقة الثنائيات الضدية في فخره المحمل بدلالات الخير والشر، فإذا كان الخير يعمل على "ترقية القيم النهوض بها والشر هو الحركة المضادة التي تهدف إلى الانتقاص من القيم والعمل على هبوطها "(زكريا، د.ت، ١٨٧)، فإن الشجاعة من القيم العليا في المجتمع الجاهلي، والجبن مما يعير به ومحق للقيم (القيسي،١٩٦٤ م،٤٧)، فنجد الشاعر ينطلق من المفهوم الاجتماعي؛ ليعلي قومه فيقابل بين الشجاعة والجبن، وتأتي الكناية في البيت الأوّل؛ لتبين شجاعة قومه (طوال السواعد)؛ لبيان شجاعتهم وقدرة نوالهم القوام، وفي البيت الثاني تظهر الموازنة بين قومه والأقوام الأخرى موظفا الاستعارة (اذا ما قلوب القوم طارت)؛ لتبث لنا مضامن الخوف والفزع وطيران القلوب، ويمعن الشاعر في إبراز الخوف، والفزع بتقديم (قلوب القوم)، وتأخير الفعل (طارت)؛ لبيان شدة الخوف، ولم يقتصر الشاعر على الاستعارة المكنية؛ لبيان شدة الخوف؛ إذ جاء بأداة الشرط؛ ليكمل ادعاءه بالبراهين من خلال الشرط، فيصنع الشاعر تضادا صوريا من خلال رسم صورة القوم التي تكاد ترينا تحليق قلوبهم، و يأتي بالطرف الآخر من الموازنة (قومه) (ارسوا) القلوب لتعلو كفة القبيلة في هذا الظرف بطباق بين (طارت/ ارسوا) يعكس شجاعة قومه وجبن غيرهم، فتظهر صورة قلوب قومه راسية ثابتة في الأرض التي طارت منها قلوب غيرهم، وليتمم الشاعر الصورة يقدم الأدلة الأخرى؛ لإثبات شجاعتهم وسطوتهم، فتأتي ثنائية أخرى تردفها لترفد شجاعتهم في مواجهة الأخطار التي طارت فيها قلوب غيرهم، (اذا جمحت حرب بهم جمحوا لها) باستعارة مكنية يهول الشاعر الحرب؛ ليظهرها تتحاشى الفرسان لجمها، بل تطير قلوبها فزعا منها سابقا الكناية بالشرط ، فإذا جمحت الحرب واستطارة شرها من دون أن يلجم رسنها جمحوا معها، منكرنا لفظة (حرب)، ولتكن أي حرب كانت، فجموحها يقابل بجموح، وتأتي الثنائيات مستقاة من المعين الاجتماعي متضافرة مثبتا الشجاعة لهم والجبن لغيرهم، ونجدة قومه وتقاعس غيرهم مبيننا هول الحرب وشرها، فالثنائية المتضادة بين الخير التي أقامها مع الاستعانة بالأساليب البلاغية بين الخير والشر؛ أي بين بسالة قومه في الموقف الذي تطير فيه قلوب القوم استطاعت توجز بعبارات مكثفة فخرها بقومه فخرا عارما .

وبمديح حربي آخر يلح المرقش على إبراز فتوة قومه في ساحة الحرب مفجرا عبر تفعيلات البسيط المفارقات الحادة بأبياته (نبوي، ١٩٨٩ م، ٥٩٦، وصادر، ١٩٩٨م ،٨١-٨٢):

إذا الكُمَاةُ تَنَحَوْا أَنْ يُصِيبَهُمُ   حَدُّ الظّباتِ وصَلْنَاهَا بِأَيْدِينا

ولا تَراهُمْ وَإِن جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ   معَ الْبُكَاةِ عَلَى مَنْ مَاتَ يَبْكُونَا

يمارس المرقش الأكبر نوعا من التفكيك، وإعادة الصياغة للمثل والقيم معولا على الثنائيات الضدية؛ لتعميق الفجوة بين الأناة والتهور وبين الصلابة وللين؛ ليجرنا مفضلين تهورهم على الأناة والصلابة في المواقف التي تستدعي اللين على اللين سالكا الثنائية الضدية؛ لبيان شجاعة قومه مقارنا بينهم وبين الكماة، وهم المقاتلون المتمرسون في الحروب، فاستطاع الشاعر من خلال توظيف طاقة الثنائيات الضدية أن يميز بين من هم في مستوى واحد، وهو مستوى الشجاعة مستهلا البيت بأداة الشرط (اذا)؛ ليوازن بين قومه وغيرهم؛ وليبين شدة الهول والفزع ، فالذي (تنحوا) الكماة واتقوا حدّ السيوف وعدم الانجرار وراء التهور، فهم لم يكونوا جبناء سابقا، بل أن هذا الموقف يتطلب التنحي؛ لأنه موت محقق على الرغم من أن الكماة متحصنون بوسائل الوقاية، وجاء بطرف الثنائية الآخر؛ ليجعلنا ننظر لتنحي الكماة نظرة أخرى نجبنهم فيها حين جاء جوابا الشرط (وصلناها) وفيه المفارقة؛ إذ إن السيوف تتقى بالسيوف ولا تتقى باليد، لكن لشجاعتهم اتقوها بأيديهم أن تسخير الشاعر لهذه الثنائية جعله يتلاعب بالقيم السائدة ، فالحلم في مثل هذه المواقف قد يستحسن؛ لأنه فيه تهلكة، لكنه حين جاء بطرف الثنائية الآخر الملتصق بقومه غير هذه القيم، وأصبح الحلم جبنا حين اتقى قومه بأيديهم ما لم تقف عنده الكماة ولو بسيوفهم، وقد يكون هذا التلاعب من مميزات الثنائيات الضدية التي لا توجد في غيرها من التقنيات، فإذا كانت هذه الثنائية لم تنصف القوم، ولم تبيّن مراسهم الحرب، والقتال تأتي الثنائية الأخرى مصدرة بالجزم فهم لا يبكون موتاهم، مؤكدا ذلك (وأن جلت) مصيبة، بينما غيرهم يبكي موتاه ! أتت الكناية هنا؛ لتشي بثنائية كبرى ولا يعني عدم البكاء أنهم لا يستحقون البكاء، وهم الأبطال الذين اتقوا السيوف بأيديهم، بل هؤلاء قوم اعتادوا القتل والقتال، ولم يكن الموتى أول موت لهم، فهم أبناء حرب تربوا في لهواتها، ولا تجدر الميتة لهم حتف انوفهم بل على حدّ السيوف تفيض أرواحهم، وهؤلاء لا بكاء عليهم فهم مما شملهم هذا الشعار المقدس شعار الموت في ساحات القتال، وهو مما تفتخر به العرب كما في قول السموأل من الطويل (نفطويه، ١٩٩٦م،٧٣):

وَما ماتَ مِنّا ميتٌ في فراشه   وَلا طُلَّ مِنّا حَيثُ كانَ قَتيلُ

يعبر زهير من خلال البحر الطويل اعتيادهم القتل، وأن الموتور يجد الشفاء بدمهم (طماس، ٢٠٠٥ م، ٤٨):

وَإِن يُقتَلوا يُشتَفى من دِمائِهِم   وَكانوا قَديماً مِن مَناياهُمُ القَتلُ

أما من بكى كانت أول حرب له وهي كناية عن الخضوع، والذل أو أنهم قوم حديثي العهد بالقتل والقتال، وبالتالي تتحول دلالة البكاء في هذا الموقف من وفاء إلى جبن؛ لأن اللفظ كما يرى أحد الدارسين تتغير دلالته بتغير علاقته مع الألفاظ الأخرى (الزوبعي، وحلاوي، ١٩٩٦م، ١٣٩)، ولعبت الثنائيات الضدية هنا دورا مميزا مع الكناية حين حولت القيم السائدة وأعادت تشكيلها بحسب نظرة الشاعر، فصار الحلم جبنا واتقاء السيوف بالأيدي و الترامي على نار الموت شجاعة لا تهورا.

ويظهر أن للحرب الدائرة بين تغلب وبكر الأثر الكبير في تشكل ثنائية الخير والشر، فالحديث عن الظلم الذي أوقعته تغلب ببني بكر مستشري في أشعارهم ذاكرين ما مرّ به قومهم من ظلم أحدثه بهم التغلبيون، وقد يكون في عرض ذلك الظلم الواقع عليهم إعلام البطون الأخرى في أحقية مساندتهم، وفي شرعية حربهم وكفاحهم ضدهم، ودعوة لهم للانخراط معهم فيها، فكثيرا ما يمهدون لوصف معاركهم وبسالتهم فيها بذكر ذلك الظلم مسوغا لاستمرار كفاحهم، منتجين ثنائية بين

ظلم تغلب وعدوانها وعدم استسلامهم لها ورضوخهم مدافعين عن أنفسهم، ويتجلى ذلك في أبيات من الوافر في قول الشاعر عمر بن ربيعة (نبوي، ١٩٨٩ م،٤٣٢) :

وما دَفَعَ الدَّناءَةِ من أُناسٍ   كَمِثْلِ الصبرِ في اليومِ العَسِيرِ
وتَوْطين النفوسِ على المنايا   وهل للنفسِ منها من مُجِيرِ
تَواعَدَتِ الأراقِمُ مُسْرعاتٍ   إلى دارِ القطيعةِ و الفُجُورِ
وقالوا ليس يُوفي مِنْ كُلَيْبٍ   بني جُشَمٍ سوى القَيْلِ المُنِيرِ
وَهُمْ في وائلٍ عَدُّوا وأعْدُوا   مُكاشَفَةً بِتَهتِيكِ الستُورِ
فإنَّ صغيرَ ظُلمِ القومِ ممَّا   يَجُرُّهُمُ إلى الظُّلمِ الكَبيرِ
فلما أن رأيْت الأمرَ جَلَّتْ   جَرائِرُهُ على جَرّ الستُّورِ
ولم نَرَ مِن ضَرِيرِ الشَّرّ مَنْجىً   سِوى قَذْفِ النفوسِ على الضَّرِيرِ
قَذَفْنا بالنفوسِ هناك قَذْفًا   على ما كانَ مِن وغْرِ الصُّدورِ
وزَحْزحنا ضَرِيرِ الشَّرّ عَنَّا   بِإِنْضاءِ المُهَنَّدَةِ الذُّكورِ

يحمل النصّ ثنائية مفادها الإباء والخضوع للشر، أو مواجهة ذلك الشر ودحضه، ولا خلاص من الشر إلا بمواجهته، وجاءت الاستعارة (دفع الدناءة) في البيت الأوّل تحمل معنى الخلاص من الشر، وأن الخلاص منه هو الصبر على حربه، وتوطين تلك النفوس على الموت، وباستفهام إنكاري يسوغ ضرورة الصبر على المنايا والحرب، فلا مجير من المنايا، وفي البيت الثالث (دار القطيعة) كناية عن ما فعله التغلبيون بهم، وقطعوا الأرحام بينهم وتعدوا في طلب الثأر، وبنكهة فلسفية معولاً على الطباق (صغير الظلم) (ظلم كبير) يفلسف تفاقم الشر، فقد (ترى العرب لصفاء فطرتهم وحدة أذهانهم وقوة طباعهم كأنما ينسجون في شعرهم الأخلاقي قضايا الفلسفة التي ذهب في تحقيقها شطرا كبيرا في عمر الاجتماع الإنساني حتى لا نكاد نجد مبدأ من المبادئ الاجتماعية التي صدرتها الفلسفة الحديثة إلا ولمثله ذكر في شعر هؤلاء الأعراب) (الرفاعي، ٢٠٠٢م،١/١٢١)، ويبيّن التكرار الوارد في ما كان في نفوس البكريين من ألم ومعاناة أحدثها ظلم التغلبيين، فالشر قد تكرر مرتين والضرير مرتين والظلم في البيت السابع مرتين، فالتكرار يُعدّ "أحد الاضواء اللاشعورية التي يسلطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها" (الملائكة،١٩٦٧م،٢٤٣)، وأسفر التكرار عمّا كان يعانيه الشاعر وقومه من اضطهاد، وهناك ألفاظ أخرى تحمل معاني الشر (الدناءة، القطيعة، منايا، الفجور، جرائر، وغر، عسير، هتك)، ويرى الشاعر أن الشر قد تفاقم واستوحش موظفا الكناية (صرير الشر) ولا رادع له، يلتفت الشاعر إلى كيفية الخلاص من هذا الشر، فيأتي الخلاص برمي الأنفس على هذا الشر بالسيوف؛ لتدفع تلك الدناءة لنيل الشرف، والاقتصاص من الظالم، وحفظ الكرامة لا يكون إلا بمواجهة الشر، ومقارعة الظلم من خصال الخير التي تغنى بها شعراء العرب (الجبوري، ١٩٨٦م، ٦٧-٦٨) مما جعل ثنائية الخير والشر تستقى من الفضاء التاريخي أيام العرب وتحولها إلى مادة للفخر، فقد ابتلي بنو بكر بظلم آخر من بني يشكر حين طغوا وتجبروا على أبناء قبيلتهم، فما كان من بني تيم اللات من تقويمهم بالسيف، فيفصح عمرو بن مالك التيمي (الكلبي،١٩٨٦م، ٥٦١ ، الأندلسي، ١٩٨٢م،٣٠٨، والمرزباني، ١٩٨٢ م، ٣٩) بأبيات من مجرى الطويل عن أنفتهم بفخره (نبوي،١٩٨٩ م، ٣٣٠) :

ونَحْنُ هَدَمْنَا عِزَّ يَشْكُرَ بعدما   مَضَتْ حِقْبَةٌ تحمى الرِّياض وتَغْشِمُ
ونحنُ وَطَأْنا هَامَةَ الفرخِ إذ   عَسَا على حين لا يُغْشَى ولا يَتَظَلَّمُ
ونحنُ سَلَبْنَا البكْرَ جَمْعًا مُكَوّسًا   فأصبح فينا لحمُهُ يُتَقَسَّمُ

مما يلحظ أن السيادة أو الزعامة غالبا يرافقها الظلم، فكليب طغى حين سادهم، وكانت النتيجة قتله وإباء الضيم، وهؤلاء بني يشكر قد طغوا حين سادوا قومهم، لكن ما كان من قومهم إلا تقويم اعوجاجهم بالسيف، وعدم الخضوع لهم، ولكن لم يكن ذلك بشكل فوري، ويظهر أن القوم امهلوهم (مضت حقبة تحمي الرياض وتغشم)، وهنا تتّضح الفروق بين ظلم وآخر، هناك ظلم ممكن الصبر عليه حتى يكتسب المنتفض مشروعية الرد أو حتى لا تقع الفتنة، أو الانتظار عسى أن يثوب إلى الطريق القويم، ولم يكن الامر سهلا، فقد كانوا قد ضربوا عصب الحياة الجاهلية (الرياض)، لكن أمهلوهم، ويبدو أن ذلك الظلم لم يكن يوجب إشعال الحرب بسرعة، فهم أبناء عمومة وأنه لم يمس كرامتهم مساسا قويا حتى أن الأمر وصل بهم أن وضع سيدهم الحارث بن غبر بن غنم فرخ عقاب على الطريق القريبة منهم فمن مرّ وأخافه يُقتل (الكلبي، ١٩٨٦ م، ٥٦١)، مما ينفي التصور القائم من أن العرب كانت تثور على أتفه الأسباب، وتقطع أواصر القرابة وأن حياتهم الدماء والقتل على أتفه الأسباب، وبالعودة إلى ثنائية الخير والشر في النصّ يعتمد الشاعر التصوير البلاغي؛ لبيان قوة قومه وضعف خصومه، فالاستعارة المكنية (هدمنا عز يشكر) تصور ما كانت عليه يشكر من عزة وباس، فهذه القوة تحتاج إلى قوة أكبر منها؛ لردع ظلمها، وتحقيق العدالة فإضفاء صفات القوة على الخصم هو أسلوب يستعمله الشاعر؛ لبيان هيمنة وقوة قومه أو نفسه، وتبرز المفارقة البلاغية حال يشكر، فبعد ظلمها واستبدادها واحتكار الأرض لها اضحت ذليلة مما يجعل سقوطها أكثر دويا، وفي البيت الثاني المستهل بالضمير الجمعي (نحن) المكرر في الأبيات الثلاثة ممّا يدعم الفخر الجماعي، والتغني بأمجاد القبيلة التي قتلت فرخ العقاب الموضوع على الطريق الذي كان يتحاشاه الجميع خوفا من سطوة بني شكر، وكأن على رؤوسهم الفرخ، ولكن قوم الشاعر هم القوة العادلة التي حققت العدالة بسحق هامته، وفي البيت الثالث يعزز موقف قومه من الظالم (سلبنا)، وموقف الظالم نفسه حين يجني عليه ظلمه يجعله عرضة للسلب المشروع واسترداد الحقوق .

وبالعودة الى التجاوزات التي توجب الثورة الفورية، والتي لا توجبها فورية يأتي دليل آخر في قول جساس بن مرة بأبيات من البسيط متخذا من ثنائية الخير والشر مبررا لفعلته(نبوي، ١٩٨٩م، ٣٩٩) :

فقد قتلنا كُليباً لم نُبَالِ به   بنابِ جَارٍ ودُونَ القَتْلِ يَكْفِيهَا

نَحْمِي الذِّمار ونحمي كلَّ أَرْمَلَةٍ   حقا وندفَعُ عنها مَن يُعاديها

والجَارُ نُؤْمِنُهُ إنْ حَلَّ سَاحَتَنَا   والعَارُ نَمْنَعُهُ الأشراف والِيها

فكليب قد حمى الرياض طويلا، ولم تنتفض عليه بكر حتى خرق العرف في الإجارة وحقّ الجوار، فقد قتل ناقة جارتهم، الأمر الذي يمس بالكرامة بشكل مباشر، فالمراعي قد يلتمس غيرها أو يمكن الصبر عليها، ولا توجب ثورة تبدد القبيلة أو تعجل الحرب، لكن نرى سرعة الرد حين يُخرق ذلك القانون؛ وتأتي الأبيات لتبين أهمية الجوار وأن الاعتداء عليه لا تمهل فيه ولا يحسب فيه للنتائج حسابا (لن نبال به)، فحماية الضيف والدخيل والأرملة، ممّا يوجب الانتفاض والثورة بوجه كل من يعتدي لا على التحديد حتى إذا كان ذلك المعتدي كليب الذي طالما صبروا على ظلمه، فأن العرب كانت تأنف لجارها حتى وصل بهم الأمر أن تقوم حرب شعواء من أجل حداة قُتلت في حمى قبيلة عرينة (الأندلسي، ١٩٨٣م، ١/ ٦٠)، وبجناس ناقص يباعد الشاعر بين متناقضين بين الجار والعار، وأنهما لا يكونان معا في قبيلته فحقّ الإجارة يمنع العار عن من أجار ويتّضح مما سبق أن العرب لم يكونوا يثورون بشكل مباشرا على كل اختراق للقوانين فبعض الأحيان يفعلون دورَ الحلم حتى إذا لم يكن له ثمارًا يأتي دور السيف ليفعل ما لم يفعله الحلم.

ولكن نتائج حلول السيف وخيمة والولوج فيها قد تنبئ به جساس مسبقا حين أنبرى ينشد أبياته بقالب البسيط لأبيه في اليوم الذي قتل فيه كليب في قوله(نبوي، ١٩٨٩م، ٣٨٠- ٣٨١) :

تَأَهَّبْ عنك أُهْبَةَ ذِي كِفَاحِ	**فَإِنَّ الأَمَرَ جَلَّ عَنِ التَّلاحِي**
فَإِنِّى قد جَنَيْتُ عليكَ حَرْبًا	**تَغَصُّ الشيخَ بالماءِ القَّراحِ**
مُذَكَّرةً متى ما يَصْح منها	**تَشِبُّ لها بأخرى غير صاحِ**
تَسَعَّرُ نارُها وَهَجًا وجاءتْ	**إِذَا خَمَدَتْ كَنِيران الفِصَاحِ**
وما تنفَكُّ نائِحَةً تُعَزَّى	**بما نَدَبَتْ وتُعْلِنُ بِالنُّواحِ**
تَعَدَّتْ تَغْلِبُ ظُلمًا علينا	**بلا جُرمٍ يُعد ولا جناحِ**
سِوَى كَلْبٍ عَوَى فِي بَطْنِ قاعٍ	**ليمنعَ حِمْيَةَ القاعِ المُباحِ**
فلما أن رأينا و اسْتَبَنَّا	**عُقَابَ البَغْيِ رَافِعَةَ الجَناحِ**
صرَفْتُ إِلَيْهِ نَحْسًا يومَ سُوءٍ	**له كأس من الموت الذُّبَاحِ**
تُثَكِّلُ دَانِيَاتُ البَغْيِ قَوْمًا	**وتدعو آخرين إلى الصَّلاحِ**

قبل الخوض في ثنائية الخير والشر لابدّ من التنويه على أمر، وهو أن الأبيات الأربعة الأولى جاءت وصفًا لعظيم ما ارتكبه الشاعر، وأن إنصاف الخصوم يكون بعد المعركة أو في المعركة كما كان يفعل عنترة، وأن كان وصف عنترة لخصومه من باب الاعتزاز بنفسه ومدحه لخصمه مدح لنفسه؛ لأنه قتل سيدا كريما أو شجاعا بطلا ، لكن نجد الشاعر يهول فعلته على أبيه وقومه، وهذا تثبيط لمعنويات قبيلته؛ لأنها قبل المعركة، ولكن جاء هذا التهويل في ظل الحالة النفسية التي عاشها الشاعر عالما بقوة تغلب وسطوتها، فالقصيدة تعكس حالة الخوف التي أصبح عليها الشاعر بعد أن جنى تلك الحرب التي سيأتي وصفها، لكن هذه القوة والسطوة التي تتحلى بها تغلب لم تمنع الشاعر من الاقتصاص من المعتدي على جارته، وتأتي القصيدة محملة بهول تلك الحرب مفتتحها بالفعل(تأهب) الدال على رهبته وفي قوله: (تغص الشيخ بالماء القراح)، استعارة مكنية تنطوي على نبوءة بهول تلك الحرب حتى الماء الذي به جعلت الأحياء أحياء أصبح مميتا، حرب ترعب الشيخ، ومن المفترض أن يكون الأكبر سننا قد عركته الحروب، ولفحته نارها، ونضج لا تخيفه أهوالها، لكنها تغص الشيخ بالماء على الرغم من عذوبته، وهذه الحرب لا انتهاء لها بدلالة اسم المفعول (مذكرة)؛ لتشي بتجدد واستمرار الحرب، ويأتي طباق السلب (يصح/ غير صاح)؛ ليقطع الأمل من انتهاء هذه الحرب التي متى ما إن خمدت نارها حتى انبعثت مرة أخرى دائمة السعير، وبثنائية ضدية بين (تسعر / خمدت)، يبيّن أمرين أحلاهما مرّ فهذا التقابل بين تسعر وخمدت قد يشي بنهاية تلك الحرب بعد أن وصلت الأحداث إلى ذروتها، وطحنتهم طحن الرحى، ونصل إلى نهاية التصعيد خمدت، ولكن التشبيه يبدد هذا الوهم وما هي إلا فجوة بين الأحداث المتصاعدة؛ ليكون خمود تلك الحرب (كنيران الفصاح)، وهي "النيران التي كانت توقدها نصارى العرب في أعياد الفصح ويبدوا أنهم كانوا يبالغون في إشعالها" (نبوي، ١٩٨٩م، ٢٨١)، فإن أقل تطورات هذه الحرب كنار الفصح؛ لتصل أحداث هذه النبوءة إلى نهايتها، نتيجة هذه الحرب الثكل والنواح، وهذا السرد لتصوير شرّ الحرب، لكنها حرب حقّ حرب؛ لدفع الضيم عن الجار، ففي البيت السادس يبدأ الشاعر في تبرير فعلته وعظيم ما جلبه لقومه، وفي البيت نفسه يعري الشاعر بثنائية ضدية تغلب من العدالة، فكانت عداوة تغلب لهم (ظلما) مقابلا بين هذا الظلم الذي لحقته بهم تغلب، وبين موقف قومه البريء من أي ما يستوجب ظلمهم نافيا عن قومه أي جرم ارتكبوه أو أية جنحة بدرت منهم، وأن كل ذنبهم أن (كلب عوى) موغلا في إظهار ظلم تغلب التي أعتدت على جارته؛ لأن هذه الأرض محمية على القدر الذي يسمع فيه صوت ذلك الكلب، وهي أرض مباحة، وجاء طرف الثنائية (الشر) واضحا في أفعال تغلب تجه قوم الشاعر موظفا تقنية التضاد؛ لبيان حجم الظلم الواقع عليه غارفا من المعين الاجتماعي المتعارف عليه من حقّ الجوار وتقاسم الأرض؛ ولتوضيح موقفه لقومه أكثر يبدأ الشاعر البيت الثامن بالتوكيد بـ(لما) المكونة من لام التوكيد وما التوكيد وبعدها (أن) للتوكيد أيضا، وهو توكيد لقومه الذين قد يُأخذوه

على فعلته، أو لغيرهم معللا فعلته بثنائية ضدية تحمل معاني الخير والشر (عقاب البغي رافعة الجناح)، فإن البغي مما يرفع الود والتراحم والسلام بين القوم، وهذا البغي هو ما اودى بحياته؛ ليختم القصيدة ، بثنائية كبرى متشحه بالكناية بين قومه وقومه كليب (البغي / الصلاح) وحال القومين، وأن هذا البغي الذي عليه قوم كليب جر لهم الثكل مقدما مرة أخرى أفعال تغلب (البغي) هو الذي ثكلهم، وأن هذا البغي ذاته يدعو أُناس أخرين إلى الصلاح الذي هو الانتصار للمظلوم والجار، لكن لو دققنا النظر في القصيدة نجد الشاعر أكثرَ من النبوءات حول الحرب ومصيرها ثم يستغرق في وصف ظلم كليب وتغلب ومن ثم يفتخر ببيت وفي هذا تتّضح جلالة و فظاعة الأمر الذي أقدم عليه، فلا تخفي رهبته بغربال الفخر فتكرار حرف الألف وهيمنته على النصّ الذي أضفى نغما موسيقيا موحيا بتوتر الأحداث وتأزمها وتشابكها، مما زاد من درامية النصّ يدلّ أيضا على رهبة الشاعر وخوفه من نتائج ذلك الفعل الذي أقدمه عليه مما أضفاه حرف الألف من توجع ورهبة، ولكن على الرغم من كل ذلك انتصر لظلم جارته .

وأفاد شعراء بني بكر من الأيام الدائرة بينهم، وبين تغلب فقد اتخذوا منها رصيدا يعينهم في إبراز فتوتهم وقوتهم كما مرّ سابقا، وإذا كان جساس قد برر فعله لقومه أو اراعه ما حدث على الرغم من إصراره على حماية جاره، إلا أن سعد بن مالك البكري الذي رفض تسليم جساس؛ ليقتل بدم كليب (الكلبي، ١٨٨٨م، ٥٩) أفاد من هذا اليوم مفتخرا؛ ليُظهر قوة قومه، والأمر التي ألت إليه تغلب، وجاء فخره منسوجا على البحر الطويل (نبوي، ١٩٨٩م، ٥٤٨):

نَحْنُ قَهَرْنَا تَغْلِبَ ابنة وائلٍ بقَتلِ كُلَيْبٍ إذ طَغَى و تَخَيَّلا

أبَأناهُ بالنّاب التي شُقَّ ضَرْعَها فَأَصْبَحَ مَوْطُوءَ الْحِمَى مُتَذَلَّلَا

يذكر الشاعر تغلب بهذا اليوم، وهو يوم فخر بنسبة لهم، فقد حافظوا على كرامتهم في وجه رجل مثل كليب مبتدأ بثنائية ضدية مضمرة (نحن قهرنا) هذا القهر التي أصبحت عليه تغلب لا يكون إلا بعد عزّ وفيه أيضا رفعة لبكر التي حافظت على جوارها نافضة عنها غبار الضيم الذي الحقه بها كليب، ومرة أخرى يتضمّن الشعر البكري أسباب القتل، أو السورة التي قاموا بها فجاء القهر مشروعا؛ لأن تغلب قد طغت وتخيلت ، وهناك تحول من حالة إلى أخرى، فالقهر يأتي بعد عزّ، وهذه الخيوط التي أظهرت هذا الطرف، والطرف الآخر يفهم يفهمه المتلقي؛ لأن "الاتصال بين النصّ والمتلقي عملية تتحرك وتنتظم ليس بوساطة ما يقال وإنما عن طريق تفاعل صارم بين ما يقال و ما لا يقال بين الصريح والضمني بين ما هو خاف وما هو معلن"(الشهرزوري، ٢٠١٠م، ٢٩٥) ، وفي ثنائية أخرى تبيّن الحال التي كان عليها كليب والحال التي صار عليها، فبعد أن كان عزيزا منيعا متخيلا طاغيا مهابا، تذلل وخضع (تخيلا / متذللا)، فيأتي الطباق هنا ليبيّن صورة كليب قبل وبعد مستثمرا الشاعر طاقة الثنائيات الضدية؛ ليبين مصير كليب الطاغي الذي تذلل حتى قتل بناقة حال قومه الأباة الذين لم يضيعوا حق جارتهم .

وهذه يوم آخر من الأيام الدائرة بين بني بكر وتغلب يتخذ منه الفند الزماني مادة خصبة؛ ليفتخر به فأخذت الأيام السهم الأوفى في أشعارهم مفتخرين بما انتصروا فيه من معارك على بني تغلب، وبذلك بثوا ثنائية الخير والشر مستغلين تلك الأيام الدائرة بينهم مبيناً ما أبلى فيه قومه من بلاء، وما كانت عليه تغلب من جبن وخوف في قوله على بحر الهزج (نبوي، ١٩٨٩م، ٥٤٨):

وَوَلَّوْا إِذْ تَفَكَّرْنَا لَهُمْ والمَوْتُ عَجْلانُ

حَذَارِ الموت إن المو ت للأعداء مِحْسَانُ

قَصَدْنا نَحْوَهُمْ حتى إِذَا جُزْنَا لَهُمْ لانُوا

فَأَمْسَوْا رَهَنَ الرَّمْلِ عليهم ثُمَّ أَكْفَان

تتّضح في الأبيات جدلية القوة والصعف ،أو الشجاعة والجبن الشاعر يفتخر بيوم كان لبكر على تغلب من خلال ثنائية استهل أحد طرفيها (وولوا)؛ ليلبس تغلب ثوب الجبن لمجرد تفكير بكر بقتالهم مقدما الحدث (الفرار) حتى قبل أن تبدأ المعركة وهو مما يصور هيبة قومه وجبن تغلب ممعنا في إظهار سرعة فرارهم قبل وقوع المعركة المباشرة ، أما البيت الثاني يقابل الشاعر بين الموت والإحسان وانى الإحسان في الموت ، وهي مفارقة جعل الشاعر موت الأعداء إحسانا لهم متلاعبا بمفاهيم الخير والشر، فكيف يكون الموت خيرا، وهو الشر الذي يتقيه الجاهلي الباحث عن الخلود، وقد يكون المعنى أن الشاعر يرى موتهم في ساحة الحرب إحسانا لهم حتى لا يُحسبوا على الشجعان في موتهم في سوح الوغى ففرارهم ، أو أذللهم هو الشر لا موتهم، لكن لم يفلتهم هذا الفرار (قصدنا نحورهم)، فإذا أكثر الأجزاء الواجبة الحماية هي الرقبة فوصولهم لها يفصح عن شجاعتهم وجبن أعدائهم، فمتى يدافع إذا كان خصمه قد وصل لرقبته ! وهو أيضا كناية عن انقياد خصمهم لهم وبمفارقة غريبة مصورا شجاعة قومه قاصدين نحور أعدائهم، ولكن بحدث مفاجئ (جرنا) (لانوا)، فافعل الدال على القوة جرنا يقابله لين الأعداء، وهو كناية عن ضعفهم وجبنهم، ففي الوقت الذي وصل الخصم إلى نحورهم لانوا وهو موقف يتطلب الذب عن النفس، فالمفارقة تعكس حالة القومين في الموقف الذي يتطلب القوة والحزم وتُضيف المفارقة طابع السخرية والتهكم وانهيارهم مستسلمين، مصورا نهايتهم نهاية الضعيف الذليل الذي مات دون أن يدافع عن نفسه، أو يقف موقف البطل المحارب يَقتل أو يُقتل.

وعلى الصعيد الاجتماعي تأتي الثنائيات؛ لتكشف لنا حقيقة اجتماعية من حياة العرب، مفادها أن العرب لم يكونوا كلهم كرماء أجواد (وإلا لم يكن داع إلى تفاخر الشعراء بكرمهم لو كان الجميع كرماء ... أضف إلى هذا كل افتخار بالكرم يثبت البخل في الآخرين) (النويهي، د، ت، ١/٢٣٣،٢٣٢) ، ويفصح عمرو بن عبد الله العجلي عن هذه الثنائية في قوله من الطويل (نبوي، ١٩٨٩م، ٤٦٥):

إذا أُخمِدَ النيرانُ مِن حَذَرِ القِرَى رأيتَ سَنَا نارِي يَشُبُّ اضْطرامُها

يبدأ الشاعر مقدما طرف الثنائية (البخل) محملا بوعاء الكناية عنه (أخمدت النيران)؛ لأن النار كانت توقد لتدلّ الأضياف واخمادها كناية عن بخل من أخمدها، تلفت الانتباه حقيقة أن تقديم الشر سمة واضحة في أشعار البكريّين؛ إذ نجد أغلب الشعراء عندهم يقدمون الشر على الخير ثم يظهر الخير في قومه أو في نفسه، وقد تكون هذه السمة أداة لشدّ الانتباه؛ لبيان تفرده أو تفردهم إذا كان الحديث عن البخل أو الجبن، أما التقديم في حالة وصف الحروب الدائرة بينهم، وبين تغلب يأتي بمثابة إعلان وفضح لما تفعله تغلب من جور وتعدي؛ لبيان مشروعية حربهم ووقوف البطون الأخرى معهم، ثم يأتي بالطرف الآخر (سنا ناري يشب) كناية عن كرمه وجوده فإن النار التي خافت القرى قد يكون ذلك الإخماد لأسباب؛ كالقحط أو الخوف من العوز نشبت هذه النار معولا على الطباق بين (أخمد) (يشب)؛ لإظهار كرمه في الوقت التي تخمد نار غيره واستطاع الشاعر أن يظهر كرمه من خلال هذا التضاد بين المعنيين، ولكن لماذا الإصرار على الكرم في ظل تلك الظروف التي عاشها العربي، ويعلل الدكتور عبد المنعم حنفي أن (كل فرد معرض لأن يكون مسافرا ومعرض؛ لأن يكون ضيفا نازلا لدى أي إنسان في أي مكان، فهو ملزم بأن يأوي إنسانا يمرّ بهذا الظرف _ظرف_ الضيافة؛ لأنه هو أيضا معرض دائما لهذا الظرف أيضا) (حنفي،١٩٨٧م، ٣٤٢)، وقد يكون الأمر أعمق من ذلك وهو البحث عن التفرد والتميز والمجد وسيرورة الذكر بين الناس(حنفي،١٩٨٧م، ٣٤٣)، أما الدكتور النويهي فيعلل كرمهم كاحتياط يكرم فإذا أشتد الزمان عليه يُكرم أي كرم؛ لأسباب اقتصادية (النويهي، د.ت، ٢٣٥)، ولكن هل هذا كلّ هم العربي في الكرم ! لا تنكر هذه الأسباب ولكنها ليست عامة، وهناك من الناس من لا ينتظر أن يمدح، أو يفتخر إنما الكرم عندهم لإساسهم بصعوبة تلك الحياة ومرورهم بمواقف يرجون فيه أن يكرموا؛ لصعوبة ما يجدون في سفرهم مما طبعهم على الكرم، وأن يجنبوا ضيفهم مما يتوقعون حدوثه لهم لو كانوا مسافرين وهي نزعة إنسانية، والكرم لم يكن خاصا

بالمسافرين، بل بين أبناء القبيلة نفسها أو المتجاورة منها وإكرام الجار، فإذا كان كبار القوم ينتظرون الثناء والفخر من كرمهم، فما تعليل الكرم عند بسطاء الناس إلا الإيثار ونزوح نحو الخير، ولو كان الكرم خوفا من تقلب الزمن والقحط تكون المؤاخذة على الميسورين من الناس أو على رؤوس القوم لا على العامة منهم، ولم هذه المغامرة بالمال في أمور قد لا تحدث ! فالاحتفاظ به قد ينجي من التقلبات، وبالتالي الكرم لم يكن كلّه بدوافع التفاخر أو التحسب لما قد يحدث، بل هو نزعة إنسانية طبع عليها العربي كما طبع على الشجاعة والعفة عند الكثير منهم .

وفي ثنائية أخرى يعتمد المرقش الأكبر على إيقاع البحر الطويل موظفا جوانب الخير والشر؛ ليفخر بقومه حين تشتد قساوة الشتاء يُقابل بين كرم قومه وغيرهم في قوله: (نبوي، ١٩٨٩ م، ٥٨٠، وصادر، ١٩٩٨م ،٦٠-٦١) :

بودكِ مَا قَوْمي عَلَى أَنْ هَجَرْتُهُمْ إذا أَشْجَذَ الأَقْوَامَ رِيحُ أَظَائِف

وكان الرِّفَادُ كُلَّ قِدْحٍ مُقَرَّمٍ وعاد الجميع نُجْعَةً للزعانف

جَدِيرُونَ أَلَّا يَحْبِسُوا مُجْتَدِيهِمُ للحم وَأَلَّا يَدْرَءُوا قِدْحَ رَادِفِ

عِظَامُ الجِفَانِ بِالعَشِيَّاتِ والضُّحَى مشاييطُ للأَبْدَانِ ، غَيْرُ التَّوَارِفِ

إذا يَسَرُوا لم يُورِثِ اليَسْرُ بيْنِهُمْ فَوَاحِشَ يُنْعَى ذِكْرُها بِالمَصايِف

من الملاحظ أن الشاعر يبدأ قصيدته مقدما الشر على الخير ناقلا لنا الظروف البيئية الصعبة التي كانت تضرب البادية، فالشتاء البارد جاء بالرياح التي أورثت الناس الفقر، وهي رياح من جهة الشمال، وهذا شرّ طبيعي كما يقسم الشر، وليس هذا ما يهمنا، ونجد أن هذا البرد والتجأ الناس للميسورين يظهر في الأقوام زعانف قلة من الناس يقدمون العطاء لمن يحتاج في قداح! وهل تكفي الأقداح مع شدة هذا البرد الذي اذى الناس (اشجذ) وهنا الأقداح كناية على البخل والحرص؛ لقلة ما يحمله القدح، وجاء جواب الشرط (جديرون) يظهر طرف الثنائية الآخر الكرم (الخير) في قومه يكون العطاء مستمرا فهم لا يمانعون من يريد المزيد أو جاء متأخرا، والنصّ يحمل كناية أخرى لكرمهم (عظام الجفان) كناية عن الكرم هنا جفان هناك قداح أن الجفان في العشيات في وقتها لكن هذه الجفان تأتي في الضحى! وهو وقت بين الصباح والظهر، وهو وقت لا وجبات فيه، ويظهر أن الشاعر أمعن في إبراز كرمهم فإن هذا الجفان العظيمة لم تكن في أوقات التي يطلب فيها الطعام حسب، بل في الأوقات كلّها، وفي هذه الظروف الصعبة التي أصبح فيها الجميع مفتقرون! و في ثنائية أخرى تبيّن قوتهم ومنعتهم في الحروب، وجبن غيرهم واعتيادهم الدعة والركون للسلم في الحرب (مشايط الأبدان) (غير التوارف) تأتي الكنايتان؛ لتبيّن أن قومه اعتادوا الحروب فهم مهيؤون خلقيا لها بأجساد عظيمة معدة للحرب لا يركنون للدعة ولا اغمار، بل مجربين أما غيرهم فقد أثر بهم الترف والدعة، وأصبحت جلودهم ترفة وهي صفة الجبناء، ويرى الباحث أن الثنائيات الضدية الصورية التي تتشكل من الاستعارة أو الكناية أو التشبيه أكثر تأثيرا بالمتلقي، وأكثر تقريبا للصورة في ذهن المتلقي؛ لأننا نتعامل مع لغة سواء كانت بالقراءة أم بالسماع، وبالتالي المتلقي بحاجة إلى التصور أو بناء صورة في ذهنه من خلال الكلام؛ لحصول الفهم والصورة موجودة من خلال تلك الأدوات البلاغية، ولكن يكون للتنافر أثر آخر لا يقل عن تلك الأدوات أهمية وهو أن الثنائيات الضدية قادرة على إيصال تلك الصورة بشكل واضح؛ لأن ذكر كرم قومه مثلا يتبادر إلى الذهن إطعام الطعام والكرم وذلك السخاء الذي نرى فيه الأواني الضخمة نبني تلك الصورة في أذهننا عنهم، ثم ذكر بخل الآخرين بقداح صغيرة، وبخل يتوارى فيه الناس عن الكرم ، فإننا نعود مرة أخرى إلى صورة الكرم ننزعها عنهم أو بعبارة أوضح يقوم الذهن بتصفية الصفات الموجودة بالضدين وعزلها؛ لترتسم صورة الضدين ومعاينة الضدين تجعل الصورة أوضح والهدم والبناء يجعلنا أكثر تصورا وأكثر فهما لما بين أيدينا لبناء صورة الكرم وبناء صورة

البخل، فنهدم صفات البخل من الكرم حين رسمه ونهدم صفات الكرم من البخل حين رسمه وكل هذا يجعل الصورة أوضح ، ومثل هذا يحصل في الثنائيات الضدية القائمة على التضاد أو المقابلة اللفظية وأن كانت بصورة أقل .

وقد بينت ثنائية الخير والشر عند البكريّين الاختلاف بين بطون بني بكر، فقد أثرت ببني حنيفة حياة الاستقرار والتحضر وفي قول الشاعر شمر بن عمرو الحنفي قوله منظما هذه الثنائية على إيقاع البحر الطويل (نبوي، ١٩٨٩م، ٣٤٥) :

ولقد مررتُ على اللئيم يَسُبّني فمضيتُ ثُمّتَ قلتُ لا يعنيني

غضبانُ ممتلئًا عَلَيَّ إهابُهُ إنّي ، وَرَبِّكَ ، سُخْطُهُ يُرْضِيني

يارُبَّ نِكْسٍ إنْ أَتَتْهُ مَنِيَّتي فَرِحٌ ، وَخِرْقٍ إنْ هَلَكَتُ حَزِينِ

في البيت الأوّل تظهر الثنائية حلم الشاعر وجهل خصمه الذي يلاقيه سابا له وما ردة فعل إلا المضي والحلم عن التدني ومقابلته بمثل ما يفعل، ويأتي الحلم أكله حين يجعل خصمه يستشيط غضبا ثائرا لنفسه بالحلم موقعا في خصمه الأذى بالتجاهل والترفع، ويرى الباحث أن حلم في مثل هذا الموقف يشكل مفارقة بين ما كان عليه حنيفة أول نزولهم في اليمامة حاملين معهم طباع البداوة، فأوصاهم سيّدهم عمرو بن الفخذ المعروف بالمفضل بأن (من كلمكم فاشتموه واضربوه ومن ضربكم فقتلوه) (الكلبي، ١٨٨٨م، ٩)، وهنا تظهر أنفتهم وحميتهم وسرعة غضبهم، بيد أن استقرار بني حنيفة في (اليمامة وهم أصحاب نخل وزرع)(الأندلسي، ١٩٨٢م، ٣٠٩)، وقد طبعتهم حياة الاستقرار بطابع التحضر وخفت الروح العصبية عندهم، وهذا برهان آخر على ما أزعم حين وصل الأمر بهم أن يتخلوا عن بني شيبان في حربهم مع تغلب (الكلبي، ١٨٨٨م، ٤٩)، ويتجلى الأمر أكثر حين نعلم أن بني حنيفة كانوا مقسمين متشتتين، وقد ضرب بهم جرير المثل بالتشتت في قوله من البسيط(حبيب، د.ت، ٣/ ٥٤٥):

صارَت حَنيفَةُ أَثلاثاً فَثُلثُهُمُ مِنَ العَبيدِ وَثُلثٌ مِن مَواليها

وهكذا أثرت حياة الاستقرار فيهم فطبعتهم بطباع المدينة فتميزت أشعارهم عن بطون بني بكر الأخرى، ولم يكن هذا الحلم عند شمر بن عمرو وحده فهذا ازيرق اليمامة الحنفي يظهر مدى حلمه في قوله ببيت من الرمل (نبوي، ١٩٨٩م، ٣٤٢):

ما أُبالي ألئيِّم سبَّني أو عَوَى ذئبُ بِقّارات الجَبَلْ

يفتتح الشاعر نصّه بالنفي مؤكدا عدم الاهتمام بما يفعله أي (لئيم) لا على التحديد؛ لظهر ثباته وحلمه مشبها ذلك السب والتعدي عليه بعواء فلا فرق بين عواء الذئاب الغادرة وسب هذا اللئيم مظهرا استعلاءه وثباته من دون الدخول في نزاعات مع اللئام وباستفهام إنكاري يقطع الشاعر بعدم مبالاته بكلّ ما يصدر من اللئام، ولم تصدر من الشاعر أي ردة فعل أقلها المقابلة بالمثل لكن لا يوجد غير الحلم، وهو أمر لافت وهذا دليل آخر على أن القوم قد طبعتهم الحضارة وأخذوا بأسبابها.

واعتمد الشاعر البحر الطويل لصياغة ثنائية ضدية أخرى حاملة لمعاني (الخير والشر) يبيّن الشاعر تفرق قومه في قوله: (نبوي، ١٩٨٩م، ٣٤٠):

ولَمَّا نَأَتْ عنى العشيرة كُلُّها أَنَخْنَا فَحالَفْنَا السُّيُوفَ عَلَى الدَّهْرِ

فما أَسْلَمَتْنَا عند يومٍ كَرِيهَةٍ ولا نحنُ أَغْضَيْنَا الجُفُونَ على وَتْرِ

وبثنائية ضدية بين (نات /انخنا) خذلان وثبات ويظهر غدر القبيلة والتي كانت "دولة الاعرابي ، وموئله ، ووجدانه الاجتماعي توافرت فيها المسؤولية المشتركة بين أفرادها جميعا، فكل فرد صورة مصغرة لقبيلته وهي مسؤولة عن جرائر الأفراد وحمايتهم" (القيسي، ١٩٦٤م، ٤٩) وتركته القبيلة كلّها من دون استثناء يثبت رباطة جأشه باستعارة مكنية (حالفنا

السيوف على الدهر)، ولم يحالف الشاعر كغيره ممن تتركهم قبائلهم، فيسارعون إلى الانضمام إلى قبيلة أخرى ينضوون تحت جناحها (الحوفي، د.ت، ٢٨٥) مرة أخرى يقدم الشاعر البكري الشر على الخير، وجاء تقديم خذلان القبيلة؛ لنقل القارئ إلى قوة موقفه، فلم يكن ذلك التخاذل موضع ذل بالنسبة له بل عزة وقوة ، وبمقابلة أخرى بين ناي القبيلة والسيوف يظهر الفرق بين الحلفين، فإذا هذه السيوف لم تسلم الشاعر كما فعلت قبيلته وفي أشد الأوقات هي حليف في (يوم الكريهة)، فالاستعارة (ولا نحن اغضينا الجفون على وتر) تبيّن قدسية الثأر عند العربي وقد "بلغ من كلفهم بالثأر أنهم كانوا يتجانفون النساء والخمر والطيب؛ لأنها ضرب من التنعم والبهجة لا يليق بحزين موتور، أو لأنها قد تلهي، وتشغل عن الجد في الثأر " (الحوفي، د.ت، ٢٧٦-٢٧٧)، وبالتالي فإن نأي القبيلة عنه لم يوهنه في طلب القصاص والثأر وتظهر الثنائية الضدية بين موقف القبيلة المتخاذل وموقف الثبات للشاعر ولا مناص عن الثأر حتى إذا بقى الإنسان وحيدا لا يسقط عنه ذاك واجب الثأر ما زال هناك حليف السيف، وتصور أيضا تفرق قبيلته وتقاعسها عن نصرته، وهذا ما يعزز صحة تأثر حنيفة بالاستقرار.

استطاع الشاعر البكري توظيف الثنائيات الضدية مستفيدا من الأيام الدائرة بينهم وبين تغلب مظهرا من خلالها ظلم وجور تغلب وتعديها وكسرها أواصر الأخوة والقرابة واستفحال أمرها وتجاوزها الحقّ في طلب الثأر، وهو أمر ملاحظ في أشعارهم مقابلين بين شر تغلب و براءة ساحتهم من الظلم، وأن ما كان منهم إلا الدفاع عن أنفسهم وإباء الضيم الواقع عليهم على الرغم من قلة الأيام التي انتصرت فيها بكر، لكن الشعراء البكريين افتخروا بما انتصروا فاضحين بذلك تغلب واسرافها، ومعلمين للبطون الأخرى أحقية مساندتهم، وقد نجحوا في استقطاب البطون الأخرى حين شارك معهم الحارث بن عباد بعد مقتل وبجير، وكذلك بني زمان قد دخلوا الحرب، كذلك وظفوا هذه الثنائية؛ لبيان كرمهم توظيفا يجعلك تراهم أكرم العرب فنيرانهم لا تطفى وجفانهم العظيمة لا تنقص كاشفين الحياة العربية الجاهلية، وما فيها من فقر وأيام قحط تمسك فيها أيادي الناس خشية الإملاق، وتبسط فيها أيدي أخرى؛ لتكون عونا في تلك الأزمات .

الخاتمة:

لقد توصل الباحث إلى النتائج التالية:

١ – تبيّن مما سبق أن فخر القبيلة جاء معتمدا على ثنائية الخير والشر، نتيجة للواقع الاجتماعي المحتدم، فهو صورة لحياة القبيلة أو العرب في الجاهلية وما فيها من صراعات وتوترات، وصير الشاعر البكري من هذه الثنائية وسيلة لتصوير بطولات قومه ومفاخرهم بصورة الخير يقابلها شر خصومهم وظلمهم، وكذلك اتخذها الشاعر وسيلة في فخره؛ لجذب البطون البكرية المتخلفة عن الحرب حين بيّن موقفه المتمثل بالدفاع عن النفس وموقف تغلب العدائي، فجاءت هذه الثنائية تعبيرا صادقا عن ذلك الواقع .

٢ – لم تقتصر ثنائية الخير والشر على الميدان الحربي، بل امتدت إلى القيم المجتمعية العليا في حياة العرب كالعطاء والحلم، والتي تزدريها البيئة الجاهلية كالبخل والسفه، فاسقطوا على خصومهم صفات الشر وصوروا أنفسهم بصورة الخير والكرم والحلم؛ ليصنعوا تمايزا اخلاقيا بينهم وبين خصومهم، كذلك بينت الثنائية الفرق بين البطون البكرية التي تعيش في الحواضر والتي تعيش في البوادي ، فظهرت المتحضرة منها أكثر ميلا للحلم وضبط النفس، فبرزت في شعرهم ثنائية الحلم والسفه مقابل البطون البدوية التي كثرت فيها ثنائيات الشجاعة والجبن والقوة والضعف والكرم والبخل .

٣ – جاءت ثنائية الخير والشر مشيدة ببناء فني معتمدا على تضاد صوري يصنع التنافر الضخم بين الضدين، والمفارقة الموسعة للفجوة بينهما، والاستعانة بالأساليب البلاغية التي من شأنها تعميق الفجوة بين طرفي الصرع، كالنفي والتقديم والتأخير والشرط اعتمادا على هذه الأدوات استطاع الشاعر البكري حيازة الخير، وتكديس صور الشر في الخصوم؛ وكذلك استعملت لبيان التناقضات في البيئة العربية معززا من خلاله أدواته تلك قطبية الخير والشر المتضادين .

المصادر والمراجع:

- البيان والبديع لطلبة قسم اللغة العربية ، طالب محمد الزوبعي ، ناصر حلاوي، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٩٦م.
- تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرفاعي ،راجعه واعتنى به د درويش الجويدي ، المطبعة العصرية ، بيروت صيدا ،٢٠٠٢م.
- تاريخ الادب العربي ، كارل بروكلمان ، ، نقله الى العربية ، الدكتور عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة د، ت.
- تاسوعات افلاطون , ترجمة د فريد جبير واخرون ،مكتبة لبنا الطبعة الاولى ١٩٩٧م.
- جماليات التلقي في السر القرآني ،د يادكار لطيف الشهرزوري ،دار الزمان سوريا دمشق ، الطبعة الاولى ٢٠١٠م.
- جمهرة النسب ، لابي المنذر هشام بن حمد بن سائب الكلبي ، تحقيق الدكتور ناجي حسن ، مكتبة النهضة العربية الطبعة الاولى ، ١٩٨٦ م.
- جمهرة انساب العرب ،ابن حزم الاندلسي ، تحقيق ، عبد السلام هارون ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الخامسة ١٩٨٢م.
- الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، الدكتور احمد محمد الحوفي ، مكتبة النهضة ،مصر الطبعة الرابعة، د.ت.
- ديوان السموأل ، صنعه ابي عبد الله نفطويه ، تحقيق الدكتور وضاح الصمد، دار الجيل بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٩٦م.
- ديوان المرقشين ، المرقش الاكبر عمرو بن سعد ، المرقش الاصغر عمرو بن حرملة ، تحقيق كارين صادر ، دار صادر بيروت لبنان ، الطبعة الاولى ١٩٩٨م.
- ديوان بني بكر في الجاهلية ، دكتور عبد العزيز نبوي ، دار الزهراء للنشر القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٨٩م.
- ديوان جرير بشرح محمد حبيب ، تحقيق الدكتور نعمان محمد امين طه ،دار المعارف ، الطبعة الثالثة، د.ت.
- ديوان زهير ، اعتني به وشرحه، حمدو طماس ، دار المعرفة بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ٢٠٠٥م.
- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، الدكتور يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان ، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.
- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ٦٧،٦٨ ، الدكتور يحيى الجبوري ،مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الخامسة ١٩٨٦م.
- الشعر الجاهلي منهج في دراسته – و تقويمه . د محمد النويهي الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة د، ت.
- شعر الصعاليك منهجه و خصائصه . عبد المنعم حنفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط، ١٩٨٧م.
- ظاهرة التضاد عند الشعراء المحدثين ، دراسة بلاغية نقدية ، محمد الواسطي ، دار نشر المعرفة ، الرباط ، المغرب ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٣م.
- العقل العربي ، رفائيل بيناي ، ترجمة وليد خالد حسن ، مكتبة مصر ، العراق ٢٠٠٩م.
- الفروسية في الشعر الجاهلي ، نوري حمودي القيسي ، مكتبة النهضة ، مطبعة دار التضامن ،بغداد، الطبعة الاولى ١٩٦٤م.
- الفروسية في الشعر الجاهلي ، نوري حمودي القيسي ، مكتبة النهضة ، مطبعة دار التضامن ،بغداد، الطبعة الاولى ١٩٦٤م.
- قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة، منشورات مكتبة النهضة الطبعة الثالثة ، ١٩٦٧م.
- كتاب بكر وتغلب، ابو المنذر هشام بن محمد بن سائب الكلبي مطبعة نخبة الاخبار _ الهند ،د.ط ١٨٨٨م.
- لسان العرب ، ابن منظور ، نشر ادب الحوزة ، قم _طهران ،د، ت ،د ،ط .
- مشكلات فلسفية ،المشكلة الخلقية، ابراهيم زكريا مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، د.ت ،د.ط.
- معجم الشعراء ،ابي عبيد الله بن عمران المرزباني ، ، تهذيب سالم الكرنكوي ، عنيت بنشره مكتبة القدس ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م.
- المعجم الفلسفي :جميل صليبا ،دار الكتاب اللبناني بيروت ،د ،ط، ١٩٨١م.
- معجم ما استعجم ، البكري الاندلسي ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتاب بيروت لبنان، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.
- مقاييس اللغة : لابي الحسن احمد بن فارس ، تحقيق، د عوض مرعب ، فاطمة اصلان ، دار احياء التراث العربي ، الطبعة الاولى، ٢٠٠١ م.
- النجاة في الحكمة المنطقية و الطبيعة الالهية، الشيخ الريش الحسين بن علي بن سينا , تحقيق د ماجد فخري دار الافاق الجديدة بيروت ،د.ت.